صالح

أرأيت الوارث السفيه ، الذى يغرق فى ميراث لم يتعب فيه ، ولم يجمعه من قطرات عرقه ؟ .

وقد اجتمع عليه شبابه ، وفراغ وقته ، وكثرة ماله ؟ .

فيفسد خُلُقه ، ويَعْوَجُّ سيره ، وتسوء حاله ؟

إن الشباب والفراغ والجِدَة مَفسدةٌ للمرء أىّ مفسدة

* * *

أرأيته حين لا يعتبر بما نُكِبَ به آباؤه وأجداده ؟ .

أرأيته حين يغضب إذا نصحه أحد أقاربه ؟ أو عميد أسرته ؟ .

أرأيته حين يرفض النصيحة ، ويلوى وجهه ، ويُطيل لسانه ، ثم يُدير ظهره ، ثم يُولِّى فى صحبة الشيطان ، وأعوان الشيطان ، حتى يُرْدُوه فى الهاوية ؟

* * *

كذلك كانت ثمود ، قوم صالح ! .

ورثوا آباءهم قوم عاد ، بعد أن أهلكهم الله ، بتلك الريح الصرصر العاتية عصفت بهم ، سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما ، فأصبحوا كأنهم أعجاز نخل خاوية .

ولم تتعظ ثمود بما جرى لعاد ، يوم خَلَفُوهم فى الأرض ، واستعمرهم الله فيها ، فاستمرءوا النعمة ، ولم يشكروا عليها ، وبطروا بها ، وعتوا عُتُوًّا كبيراً .

وعاثوا فى الأرض فساداً ، وعبدوا الأوثان والأصنام عناداً .

* * *

فأرسل الله إلى ثمود ، أخاهم صالحاً ، يدعوهم ليعبدوا الله ويتقوه ، وليطيعوا صالحاً فيما يدعوهم إليه ، وألا يتبعوا الكافرين المسرفين ، الذين يسرفون على أنفسهم فى شهواتهم ، ومجانبة الدين الحق ، والإغراق فى الإشراك بالله ، الذى يؤدى بهم إلى جهنم .

قال لهم : ياقوم اعبدوا الله ، مالكم من إله غيره ، إنى أخاف عليكم غضب الله وعذابه .

ياقوم : أتُتْرَكون فيما ها هنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طَلْعُها هضيم ، وتنحِتون من الجبال بيوتاً فارهين ، فاتقوا الله ، وأطيعونِ ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

فاستشاطوا غضبا وحقدا ، وكبُر عليهم أن يكون صالح صاحب دعوة إصلاح ، ورسول دين جديد فيهم .

واستثارهم أن يكون صالح ، هو الذى يداوى أمراض مجتمعهم ، فقالوا : يا صالح ، قد كنت فينا مَرْجُوًّا قبل هـذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإنا لفى شكٍّ مما تدعونا إليه مُريب ؟

وغاظهم أن يسارع الفقراء والمساكين إلى دينه فيتبعوه ، ويؤمنوا به ، ويوحِّدوا الله ، وينفُضوا عنهم لباس الشرك ، وعبادة الأوثان .

فقالوا : ياصالح ، اطَّيَّرنا بك وبمن معك ، أنتم مشئومون ، شأمتمونا معكم ، فتوالت علينا المصائب ، من يوم أن ظهرتم بدعوتكم هذه .

وأخذتهم الكبرياء والأنفة ، أَن يقودهم إلى الهدى ، والدين الجديد ، واحدٌ منهم ، ليس أشرفَهم ؛ ولا سيِّدَهم .

وقالوا : أبشراً منا ، واحداً ، نتبعه ، إنا إذن ، لفى ضلال وسُعُر . ءأُلْقِى الذكر عليه من بيننا ، بل هو كذاب أشر !

* * *

و بلبلت دعوة صالح أفكارهم ، وحلَّتْ وحدتهم ، وفرقت جمعهم ، فأصبحوا شِيَعاً وأحزاباً ، وكلهم فاسدٌ ومُفسد ، وخاذل ومُخَذِّل ، « وكان فى المدينة ، تسعة رهط ، يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » .

* * *

وائتمروا بصالح ، ودبروا له المكيدة ، ورسموا الخطة ، أن يتجمعوا عليه ، و يقتلوه ، حتى إذا ما خلصوا منه ، قالوا للمطالب بدمه ، وهم يحلفون له ، إنهم ما شاهدوا مقتله ، ليبرءوا من دمه ، و إن كانوا هم القتلة .

والقاتل غير الشاهد ، وهم بِظَنِّهم أنهم بذلك يصدقون .

* * *

ثم أرجئوا القتل ، إلى ما بعد أن يثبتوا كذبه فى دعواه ، أو عجزه أن يثبت صدق دين الله .

وقالوا : يا صالح ، إئتنا بآية واضحة ، ومعجزة بينة ، وقال لهم : ياقوم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكلْ فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم ، لها يوم تشرب فيه وحدها ، ولكم يوم آخر تشربون فيه وحدكم ، وإياكم أن تُغيرُوا عليها فى يومها .

وما كادوا يعرفون أنها ناقة ثمود ، وأنها آية الله ، وهى التى يتحداهم بها فى صدق رسالته ، وأنها عماد حجته ، حتى جَرُءوا عليها ، وتصدَّوْا لها ، وضاقوا ذرعاً بها .

وقالوا : هذه الناقة نذيرُ شرِّنا ، ومَثَارُ وَعِيدنا ، لقد هان أمرنا ، حتى أصبحنا نخشى ناقة تسير فينا ، وتقاسمنا ماءنا وشرابنا .

وكيف تهاب ناقة ، ومتى كان للنوق كرامة ؟

وعز عليهم أن يساموا سَوْمَ الناقة والجمل ، فتصايحوا لكرامتهم ، وتنادَوْا ، وأجمعوا أمرهم ، وهم يمكرون .

* * *

وجاء رجلٌ أحمق منهم ، واستل خِنجرهُ ، وطعن الناقة وعقرها . وأتى عليها .

* * *

فغضب صالح ، وربُّ صالح ، وحقتْ عليهم كلمة العذاب . فكانت الرجفة الراجفة ، زعزعت القلوب الواجفة ، والأبصار الخاشعة ، وقالوا : أإنا لمردودون فى الحافرة ؟

واهتزت جنبات الأرض ، ودمَّرتْ كل من عليها ، وصيحة من صيحات جبريل ، تزلزل الجبال ، وتقطع الأوْصال وتُطوِّح بالأمانى والآمال ! .

* * *

فأخذتهم الرَّجفة ، وهم نائمون ، وحتى الذين استيقظوا فجأهم العذاب ، فخرُّوا ساجدين ، خوفاً واضطرابا ، وماتوا وهم يجلسون القرفصاء .

* * *

وحين اشتد عليهم الكرب ، وباغتتهم المصائب ، خرُّوا على وجوههم ، حتى لا يَرَوْا ما هو نازل بهم ، فأخذتهم الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

كأن لم يغْنَوْا فيها ، ألا بُعدًا لثمود !

لوط

[... ومن سن سنة سيئة ، كان عليه وزرها ،
وكان عليه وزر من عمل بها ، إلى يوم القيامة]

وأىّ سُنَّة أسوأ من الجناية على رجولة الرجال ؟ !

إن القتل فى نظر المجتمع ، أهون من إهدار الكرامة طول الحياة ؟ .

* * *

جعل الله المرأة لنستولدها ، ولنحافظ على بقاء الجنس ، وأغرانا فى ذلك بما نلقاه فى لقائها من متعة ولذة .

* * *

وما بال الإنسان يشذ عن تلك الطريق التى رسمها الله للرجل والمرأة ، وما باله يسلك طريقاً قذرة مُوحِلة ؟ .

وأى جناية على الإنسانية ، أبشع من ن يأتى الرجلُ الرجل ، ويهجر المرأة ، وهى الإنسانة المهيَّأة لهذا الإتيان ، المخلوقة للولادة والنسل ؟ .

والمرأة فى تكوينها جمالٌ ونعومة ، وفى طبعها رقةٌ وإغراء وبينها وبين الرجل تجاذب مثل ما بين نوعَىْ الكهرباء من سالبٍ وموجب .

* * *

والله سبحانه ، لم يخلق لآدم آدمَ آخر ، ليأتيه ويتناسل منه . بل خلق له حواء ، وكل امرأةٍ فى الدنيا ، حواء لآدم .

* * *

وما بال الطبيعة تشذ فى الإنسان ، والمفروضُ والمعتقد ، أنه جنسٌ أرق من الحيوان ! وعهدُنا بالحيوان الوحشى والمستأنس ، أنه لا يشـذ ، فلا يأتى ذكورٌ ذكورا ! .

وإنما الذكر للأنثى ، والأنثى للذكر ، وتلك طبيعة الحياة .

* * *

إن هذا انحراف ، يسقط بالرجل ، ويهوى بالمرأة .

فأين تذهب هى إذا شرد منها الرجل ، أو استطرى فى جنبها الرجل !

وما مصير الرجل ، إذا فقد رجولته !

* * *

فى هذا الانحراف جريمةٌ مشتركة ، بل فيه جريمتان تجرحان البشرية !

* * *

ومن أين يلتمس المجتمع ، الحميَّة ، والشهامة ، والنخوة ، والغيْرة على العِرض ، والصلابة فى الحق ، والتأجج فى الوطنية ؟

* * *

أولئك قوم لوط !

لم يكفهم أن يكفروا بربهم ، ويجحدوا نِعَمَه عليهم ، ولم يكتفوا بأن يشركوا بالله ما لا ينفعهم شيئاً ولا يضرهم ، ولا أن يقطعوا السُّبُل ، وأن يأتوا فى ناديهم المنكر ، بل أوْغَلوا فى التدنِّى بالإنسانية إلى حَمْأة الحضيض .

« أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » .

« إنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء . . . » .

أولئك قوم لوط الفَجَرة الساقطون !

فأى خيرٍ يُرتَجَى من قومٍ أرْخَصُوا أنفسهم ، وأنزلوها إلى منزلةٍ أحطّ من الحيوان ؟ !

* * *

قوم لوط ، الذين بَذَرُوا فى العالم بذْرة هذا الداء الوبىء ، وقد سرى فى دم الأجيال ، حتى يومنا هذا ، وحتى فى باريس ، التى تدعى العلمَ والنور . فالقومُ هناك من سلالة قوم لوط ، وزادوا عليهم ، أنهم يعرضون على الناس حالات هذا الشذوذ ، فى هيئات مثنى وثلاث ورُباع ، بل وخُمَاس وسُدَاس ، فى وقتٍ واحد ، ومنظرٍ واحد . بصورة يقشعِرُّ منها البَدَن ، ويعرق لها الجبين .

* * *

اللّواط ، يَجُرُّ إلى السِّحاق ، وهو أن تعلو المرأةُ المرأة ، ثم يجر إلى البِغاء ويؤدى إلى الخلْط فى الأنساب ، ويؤدى إلى وجود الأبناء غير الشرعيين ، ثم هو يقتل الأسرة ، ويميت العصبيَّة .

* * *

أصاب هذا الداء جسم الإنسانية ، فأحدث فى روحها وجسدها ، تهتُّكاً يعجز أطباء الأخلاق والاجتماع عن أن يداووه .

* * *

قوم لوط ، الذين يدخلون على نبيهم لوط ، وعنده ضيوف من الملائكة جاءوهُ فى صورة شباب ناضرين ، ويأبون إلا أن يحاولوا اغتصابهم من بين يديه ، ليقعوا عليهم .

« ولما جاءت رسلنا لوطاً ، سِيء بهم وضاق بهم ذَرْعاً ـ خوفاً عليهم ـ وقال هذا يوم عصيب ، وجاءه قومُه يُهرَعون إليه ، ومن قبلُ كانوا يعملون السيئات ، قال يا قوم : هؤلاء بناتى هنَّ أطهر لكم ، فاتقوا الله ، ولا تخزونِ فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ؟ » .

فيردون عليه فى قِحَةٍ وبَجَاحة : لقد عَلِمْتَ ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد .

فيضيق الرجل بقومه ، ويكاد صدره يتمزَّق من الغَيْظ ، ويعوذ بربه ، ويرفع إليه وجهه ويقول :

لو أنَّ لى بكم قوة — فأبطش بكم — أو آوى إلى ركنٍ شديد ، أجو أنا وأهلى منكم وهو ضعيف أمام وحشيَّتهم ، وحائرٌ فى سوء أدبهم ، ومَغيظٌ مُحْنَقٌ من فُجورهم ، والله مطَّلِعٌ عليهم ، والملائكة الضيوف شهودُ جريمتهم .

فيقول له الملائكة :

يا لوط ، إنَّا رُسُلُ ربك ، لن يصلوا إليك ، ولا إلى أهلك بسوء ، يا لوط : إن ربك كتب عليهم العقوبة ، فاجمعْ أهلك ، وامْرُق بهم تحت ستار الليل ، ولا يشغلْك أمرهم ، ولا تأخذك الرأفة بهم ، ولا تفكر فى مصيرهم ولا يَعْنيك إلا من يتبعك منهم ، ولا يلتفتْ منكم أحد .

يا لوط : يكفيك ما لقيت ، فخذْ المؤمنين ، ودعْ وراءك الكافرين الفاجرين .

* * *

ويا لوط : دع هذه الخائنة ، التى لم تحفظك فى غَيْبتك ، ولم تناصرك على أعدائك المعاندين . « إلا امرأتك ، إنه مصيبُها ما أصابهم » .

يا لوط : إنها زميلةٌ لزوجة نوح ، فاطردها من صحبتك ، واحرمها من حضانتك ورعايتك ، واقذف بها فى حظيرة الهالكين . لتشقى شقاءهم ، وتتعذب عذابَهم ، فهى أولى بأن تكون فى زُمرتهم ، وهى أحطُّ مِنْ أن تنال شرف مرافقتك ، والنجاة معك !

* * *

يا لوط : إن مَوْعِدَهم الصُّبْح ، وإن الساعة قد أزفت ، وليس الصبح ببعيد .

فلما جاء أمرنا ، جعلنا عاليها سافلَها ، وأمطرنا عليها حجارة من سِجِّيلٍ مَنْضُود ، مُسَوَّمةً عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد .

حجارة من جهنم ، مرتبة ، معلَّمة بعلامات الأشخاص الذين تُرمَى عليهم ، فتهلكهم ، وما ذلك على الله بعزيز .

شعيب

عجبٌ للناس ، أجيالا بعد أجيال ، كل أغرقهم الله فى نعيمه ، ومنَّ عليهم بفضله ، إنهم لم يقابلوا نِعَمه بالشكر عليها ، حتى يحفظها عليهم ، ويزيدهم منها .

« لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

وإنما يقابلون النعمة بالكفر ، والإحسان بالإساءة ، والغنى بالطغيان ،

وكذلك كان أهل مَدْيَن ، العرب الذين أقاموا فى أطراف الشام . فقد كفروا بربهم ، وأشركوا به ، وتخلَّوْا عن عبادته ، وانقطعوا لعبادة الأَيْكَةِ !

وما الأيْكَة ، إلَّا خميلةٌ من شجر ، نبت حول بحيرة من ماء ، فطال شجرها ، والْتَفَّتْ أغصانها ، وكسا ظلها ، وراق ماؤها ، ولطُف هواؤها ، فكانت (الغدير) ! .

والغدير ، أُغرِم به الشعراء من قديم ، وما زالوا به مغرمين ! .

* * *

والغدير والأيكة ، فى صحراء محرقة ، لا بد يَسْتهوى المحرورين ، ويجذب الظِّماء إلى ظله وبَرْدِ مائه ، ويحتوى العشاق فى حنايا خمائله ، ويُؤْوِى الطيور ، فتغرد على أفنانه ، فيبدو فتنةً لمن كان له رقة طبع ، واعتدال مِزاج .

* * *

ذلك سر افتتان أهل مَدْيَن بالأيكة ، فأسرفوا فى حبها ، والحب يعمى ويصم ، حتى عبدوها .

وما الأيكة ، إلّا مظهر يسير ، من مظاهر نعم الله ، ولو عقلوا ، لمجّدوا الله فى بديع صنعه ، ولعبدوه لعظيم قدرته ، ولخرّوا ساجدين لله ، فى معبد جلال الله ! .

ولكنهم لم يهتدوا ، وعبدوا الأيكة ، وهى من صنع الله ، ونسوا الله ، كما عبد الأقوام من قبلهم التماثيل ، لتقرّبهم إلى الله ، ثم عبدوها ، ونسوا الله .

ذلك شأن أهل مَدْيَن .

شأن آبائهم الأولين ، فى الإشراك بالله ، وعبادة آلهة يؤلّهونها من دون الله .

وفى العناد والاستكبار ، والأنفة أن يتبعوا إنساناً أرسله الله ! .

* * *

وزاد أهل مَدْيَن على الأولين ، أنهم كانوا ذوى حرصٍ وجشع ، وأنانية وأثَرَة ، يحاولون جمع المال والغنى من أى طريق ، حتى لو كان بالغش والتدليس .

فقد كانوا يطففون الكيل ، ويبخسون الناس أشياءهم ، وينكرون على ذوى الفضل فضلهم ، ويُرخصون ما فى أيدى الناس ، ويُغالون فيما يملكون ، ويُضيّقون مكاييلهم حين يبيعون للناس ، ويُوسعونها حين يشترون من الناس ، ويُنزلون الأسعار فى شرائهم ، ويرفعونها فى بيعهم .

بل كانوا يهوّنون من شأن الناس وقدرهم ، ويرفعون من قيمتهم ومنزلتهم .

ذلك هو التطفيف ، الذى هو الغش ، ونبينا عليه السلام قطع على الغشاشين ، فقال « من غشنا فليس منا » .

والله سبحانه جعل أشق أركان جهنم للمطففين فقال : ويلٌ للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوْفون ، وإذا كالوهم ، أو وزنوهم يُخسرون .

أولئك قوم شعيب ، أصحاب مدين .

أولئك الذين أرسل إليهم ، نبياً منهم ، ليهديهم ، فقال : يا قوم اعبدوا الله ، مالكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثَوْا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين ، ولا تقعدوا بكل صراط تُوعِدُون وتصدون عن سبيل الله مَن آمن ، وتبغونها عِوَجًا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثَّركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين .

وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذى أُرسِلْتُ به ، وطائفةٌ لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .

يا قوم لا يَجْرِمَنَّكم شِقَاقى ، أن يُصيبكم مثلُ ما أصاب قومَ نوح ، أو قومَ هود ، أو قومَ صالح ، وما قومُ لوطٍ منكم ببعيد .

* * *

قال الملأُ الذين استكبروا من قومه ، لنُخرِجَنَّك يا شُعَيْبُ ، والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودُنَّ فى مِلَّتنا ، قال : أوَ لو كُنَّا كارهين ؟ قد افْترينا على الله كَذِبًا ، إنْ عُدْنَا فى ملَّتكم بعد إذ نجَّانا اللهُ منها ، وما يكون لنا أن

نعود فيها ، إلا أن يشاء الله ربنا ، وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيءٍ عِلْما ، على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين .

* * *

قالوا يا شُعَيْب ، أصَلاَتُك تأمرك أن نترك ما يعبُدُ آباؤُنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد .

يا شعيب ما نَفْقَه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رَهْطُكَ لرجمْناك ، وما أنت علينا بعزيز .

قال : يا قوم . أَرَهْطِى أعزُّ عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا ؟ إن ربى بما تعملون مُحِيط

وكذبوه ، وعاندوه ، وهدَّدوه . وتحدَّوْه .

فأخذهم عذابُ يوم الظُّلَّة ، السحابة .

فلما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصَّيْحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأنْ لم يَغْنَوْا فيها . ألا بعداً لِمَدْيَن ، كما بَعِدَتْ ثمود .

إبراهيم

لئن صحَّ ما زعموا : أن النمروذ ملك بابل ، كان رأى رؤيا أزعجته من نومه ، إذ رأى : أن طفلا يحبو على حجره ، ويمد يده ، ويخطف التاج من فوق رأسه ، فهبَّ يسأل العرَّافين تعبيرَ هذه الرؤيا ، وأفهموه ، أنه سيولد ولد ، فى أيامك هذه ، وسيكبر ، وسيكبر شأنه ، وسيكون زوالُ مُلكك على يديه .

ولئن صحَّ ما زعموا : أنه أمر أن يُذبح كلُّ طفل يولد ، حتى لا يسمح بالحياة لهذا الصبى الذى خطف تاجه فى منامه .

وأن أم إبراهيم ، وهى حبلى فيه ، خافت على وليدها أن يُذبح ، فهربت به إلى جُحْرٍ فى جبل خارج المدينة ، وولدت ولدها إبراهيم فيه ، وعاش الطفل فى هذا الغار المظلم المسدود مدة صباه .

وأن أمه كانت تذهب إليه ، متخفِّية تحت ستار الليل ، لترضعه ، أو تسقيه أو تطعمه ، ثم تسدُّ عليه بحجر كبير ، حتى لا يدخل عليه وحش أو تلدغه حشرة أو حية ، ثم تعود إلى المدينة ، وكأنها كانت فى زيارة . حتى لا تتنبَّه إليها الأعين ، أو يعرف الناس سرها ، فيذبح الملك وليدها .

وامتدت به الإقامة ، حتى أتم الرضاعة ، ففطمته ، ثم حَبَا ، ثم وقف على قدميه ودَبَا ، ثم كبر وفَطِنَ وَوَعَى ، وفكَّر فى الغار ، وفيما وراء الغار .

ولئن صحَّ أنه لما جَنَّ عليه الليل ، وحَلَكَ ظلامُه ، أطَلَّ من باب الغار ، فرأى كوكباً يلمع فى السماء ، وقد بهره فى عُلوِّه وسُموِّه ، وسُطوع نوره ، فحسبه ربًّا يُعْبد ، فقضى الليل ، يسجد له ويعبده ، حتى إذا غاب عن عينه ، بحث عنه ، فلما لم يجده ، فكر فى غيابه ، وفكر فى ربٍّ يغيب عن عبده ، وأن الرب إذا غاب لا يستحق أن يعبد . فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين .

ونظر ، فرأى القمر بازغاً ، ساطع الضوء ، كامل النور ، بهى الطلعة ، ورآه أكبر من النجم ، وأسطع من الكوكب ، وأشمل فى النور ، وأجمل فى إضاءة الكون ، فقضى هزيع الليل يسجد له ويعبده ، ولكنه أفل وغاب عن عينه ، فخاب ظنه فيه ، واستكثر على نفسه أن يكون عبداً لربٍّ ، يأفل ويغيب ، وقال : أين ربى يهدينى ، لئن لم يهدنى ربى ، لأكونَنَّ من القوم الضالين .

فلما استبدت به حَيْرته ، جَرُؤ أن يزيح باب الغار ، وأن يظهر بالنهار ، وأن يرى الشمس ساطعة وهَّاجة ، فيها ضوء وحرارة وحياة .

قال : هذا ربى ، هذا أكبر ، وعَبَدَها بإخلاصٍ واندفاع . وقضى اليوم فى ظاهر الغار . فلما أفلت ، فقد الأمل فى هذه الآلهة التى تظهر وتغيب ، والتى لا تدوم على ظهورها لعبَّادها فى كل زمان .

* * *

وقلب نظره ، وأجهد فكره ، وحكم عقله ، فى هذه الآلهة ، فلم يجد

إلهاً منها ، يملأ نفسه قدسيَّة ، ولا يُفعم صدره جلالا ، ولا يُشبع رُوحه إيمانا بأنه ربٌّ معبود ، وإنه إلٰه فردٌ صمد .

* * *

لئن صحَّ ما زعموا من حكاية الغار ، لكان إبراهيم ، بفطرته السليمة ، وفطنته الخارقة ، وذكائه الثاقب ، وحُسن تفهُّمه لما يقع تحت بصره ، وتفسيره لمظاهر الكون الذى بدأ يعيش فيه ، لكان إبراهيم بهذا ، أول من اهتدى إلى ربه بفكره ، قبل أن يُنعم الله عليه بوحيه ، ولكان أول من آمن عن دراسةٍ وتجربة ، وأسلم بعد مناقشة نفسه فى خَلْقِ الله ، حتى اهتدى إلى العقيدة الحقة ، وإلى توحيد الله ، وإلى نَبْذِ الشرك والكفر ، ودين آبائه الأقدمين .

ولكان إسلام إبراهيم ، واهتداؤه إلى دين الله ، حجةً للذين يقولون : إن الإنسان يُكلَّفُ بالاهتداء إلى الله ، لمجرد أنه عاقل ، وأن أهل الفترة ، بين دين ودين ، مُكلَّفُون مسئولون ، لأنهم عاقلون ، وأن ضَريبة العقول ، أن تكون هاديةَ إلى الله ، فإن لم تَهْدِ صاحبها ، وتصلْ به إلى ربها ، كانت كالمال ، حين لا تؤدَّى عنه الزكاة .

* * *

وإن كان إبراهيمُ ، قد اهتدى إلى ربه ، إلا أن العقيدة ، تحتاج إلى تطبيق ، والتطبيق تثبيتٌ وترسيخ .

* * *

فاتجه إلى ربه يسأله : ربِّ ، أرنى كيف تُحيي الموتى ؟ وكيف تبعث الخلائق يوم القيامة ؟ بعد أن يفنَوْا جميعا ؟ وتأكلهم الأرض ، ويصيروا ترابا ؟

قال له ربه : « أوَلَمْ تُؤمِنْ ؟ » بعد أن اهتديت إلىَّ بعقلك ؟ وأنعمتُ عليك ، بما أوْحَيْتُ إليك ؟

قال إبراهيم : « بلى » آمنت وصدَّقت ، وأسلمت وجهى لك ؟ ولكن ليطمئن قلبى إلى صدق ما اهتديتُ بعقلى إليه .

وليكون القلب والعاطفة والوجدان والروح سنداً وتقويةً للعقل ، ولأكون مُتجها إليك يا ربى بعقلى وتفكيرى وقلبى ووجدانى وروحى . ولا تكون فِىَّ ناحيةٌ من نواحى وعيى إلا متعلقةً بك ، متجهةً إليك .

قال ربنا لإبراهيم : فخذ أربعةً من الطير ، فاذبحْها ، وقطعها ، قطعا ، إرْباً إرْباً . واخلط قِطَعها ، ثم خذ من الخليط جزءا . وَضَعْه على قمة جبل ، وخذ من الخليط جزءا آخر ، وضَعْه على قمة جبل آخر ، ثم قف بين الجبلين ، وناد هذه الطيور ، تجدْها تأتى إليك ساعية .

أرأيت القدرة يا إبراهيم ، التى تَفْرز القطع المخلوطة ، وهذه الدماء الممزوجة ، وهذه الأنفس التى أزهقت ، واختلط أبيضها بأحمرها ، وصغيرها بكبيرها ؟ أرأيت أننا بقدرتنا يا إبراهيم نُعيد خَلْقها ، كما خلقناها أول مرة « كما بدأنا أول خلقٍ نُعيده » أرأيت كيف تعود إليك ، كأنْ لم يكن شىء ، ولم يكنْ ذبحٌ ولا تمزيقٌ ولا تفريق ؟

أرأيت هذه القدرة يا إبراهيم ؟ و بقدرتنا سنُعِيدُ الخلق ، كما خلقناهم أول مرة « وهو الذى يبدأ الخلق ، ثم يُعيده ، وهو أهْوَنُ عليه » .

واطمأن قلب إبراهيم إلى ربه ، و إلى قدرته ، ورسخ فى ذهنه أن الخلق لا بد يوم القيامة عائدون ، وعلى إيمانهم وكفرهم محاسبون .

* * *

واتجه إبراهيم بدعوته ، أول ما اتجه ، إلى أقرب الناس إليه ، وأعزهم عليه ، إلى أبيه آزر . إذ قال لأبيه : يا أبت ، لِمَ تعبد ما لا يسمعُ ، ولا يُبصر ، ولا يُغنى عنك شيئاً ؟ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ، ما لم يأتك ، فاتبعْنى ، أهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا ، يا أبتِ ، لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان ، كان للرحمن عصِيا ، يا أبت إنى أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن ، فتكون للشيطان وليا !

هذا أدبُ الأبناء ، فى عرض الفكرة على الآباء فى لطف ولين .

قال له أبوه ، وهو مَغِيظٌ مُحْنَق ، يتهكم بولده ، و يستكثر عليه أن يكون الولد مُرشداً لأبيه « أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم » ؟ لئن لم تنته ، لأرْجُمنَّك ، واهجرنى مَلِيًّا .

فلم ييأس إبراهيم من هذا القول الغليظ ، والتهديد والطَّرْد ، ولم ينْسَ أنه يتحدث .. بيه فقال له : سلامٌ عليك ، سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حَفِيًّا ، وأَعتزِلُكم وَمَا تَدْعونَ من دُونِ الله ، وأَدعُو ربِّى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا .

ولما تعصَّب أبوه وقومُه عليه ، وهزءوا به ، وسخروا منه ، وقالوا له : أجئتنا بالحق ، أم أنت من اللاعبين ، يئس منهم ، وقطع الأمل فى هدايتهم ، وصحَّح موقفه من وعده أن يستغفر الله لأبيه :

وما كان استغفار إبراهيم لأبيه ، إلا عن مَوْعِدَةٍ ، وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدوٌّ لله ، تبرأ منه .

ثم قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون . أفرأيتم ما تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدوٌّ لى إلاَّ ربَّ العالمين . الذى خلقنى ، فهو يَهدينى . والذى هو يُطعمنى ويَسقينى ، وإذا مرضت فهو يَشفينى ، والذى يُميتنى ثم يُحيينى ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين .

بل ربكم ، ربُّ السموات والأرض ، الذى فَطَرَهُنَّ ، وأنا على ذلكم من الشاهدين .

* * *

وأسَرَّ إبراهيم فى نفسه ، أن يكون فى دعوته ، جريئاً عليهم مُهاجماً لعقيدتهم ، مهما كلَّفه الأمر ، فقال :

وتا الله ، لأكيدنَّ أصنامَكم ، بعد أن تُوَلُّوا مُدْبِرين .

* * *

وغافل القوم ، وتربَّص بهم ، حتى خرجوا جميعاً فى يوم عيدهم ، وبقى وحده يفكر فى شأن القوم ، وهم أهله ، ولكنهم كافرون مشركون ، وأنه اهتدى إلى الله ، وأنهم لقوله ورسالته لا يسمعون ، وأنهم بهذه الأصنام متمسكون متشبِّثون ، وأن الزمن سيطول فى مجادلتهم وهم يجادلون .

والفكرة والعقيدة ، حين تستبد بصاحبها ، تدفعه إلى العمل فتدفع القائد حتى لا يرهب الموت ، ورجل المطافئ حتى لا يرهب اللهب ، ومنقذ الغريق حتى لا يخشى الغرق ، وطالب المعالى حتى لا يُغمض الجفن ، وطالب الثأر ، فلا يهدأ حتى يكْرَعَ دَمَ الغريم .

ودفعتْ إبراهيمَ إلى أن يدخل المعبد ، ويرى الطعام ، المقدم قُرباناً للآلهة والأصنام ، فيحتقرها ويزْدَرِيها ، ويقول لها متهكماً ، ألا تأكلون ؟ ما لكم لا تنطقون ؟

ويثور فيها ، وينزل عليها ضرباً بيمينه ، ورَكْلاً ورَفْسًا برجله ، ثم تأخذه سَوْرَةُ الغضب فيُمسك بالفأس ، فيحطمها تحطيما ، وَيُفتِّتُها تفتيتاً ، حتى يجعلها كِسَرًا وجُذَاذاً .

* * *

يا لله ، مدينةٌ خلَتْ من أهلها ، وليس فيها إلا شابٌّ واحد ، هائج ثائر غاضب لوجه الله ، ولدين الله ، وهو وحده يُشهر حرباً على الآلهة الزائفة ، مؤيَّداً بروح الله الحق ، يضرب ويخبط ويكسِّر ويحطّم ، ويُرغِي ويُزْبد ، ثم لا يفكر فى نتيجة ما يفعل ، ولا فى غَضب القوم عليه ، ولا فى ثورتهم ضده ، ولا فى أى عقاب سينزلونه به .

فعَلَ ما فَعَل ، وعلَّق الفأسَ فى رقبة الصَّنم الأكبر ، وخرج وهو يصيح ويجأر : الله أكبر . الله أكبر !

* * *

ورجع القوم إلى مدينتهم ، وزاغت أبصارُهم من هَوْل ما رأوْه قد حلَّ بآلهتهم ، وفُجِعُوا فى دينهم وفى عقيدتهم ، وفى معبدهم . والعقيدة مظهرُ الروح والعاطفة ؛ يثورون لها بوجدانهم ، ولا يحكِّمون عقولهم ، ويَهيمُون لها بقلوبهم ولا يرجعون إلى تفكيرهم ، ويندفعون تحت تأثير تقاليدهم ، ولا يكبَحُون جماحَ ثورتهم . ويقولون مَنْ هذا الذى جُنَّ جُنُونُه ، حتى فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لَمِنَ الظالمين .

ويقول بعضهم لبعض ، مُتجاهلاً قدر هذا النَّبى الهادى العظيم : سمعنا فتًى يذكرهم ، يُقال له إبراهيم .

قالوا فأْتوا به على أعين الناس ، لعلهم يشهدون .

واجتمع الناقمون ، والْتَمَّ الناس ، وتألَّبتْ عليه المدينة ، وانعقدتْ الجموع للمحاكمة .

وسأله زعماء القوم : أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

ذلك موقفٌ صعب ، لا يتحمله ولا يقوَى على مُجابهته ، إلا ذو العزم قويُّ الجَلَد : إبراهيم ، فهو أبو أصحاب العزم من الرسل . حين يرى هؤلاء الغاضبين ، وهم خصومه وحكَّامُه ، وحين يرى المحكمة والمحكَّمين ، يرمونه بشرر الغضب ، ويتوعَّدونه بالشر ، وهو هادئٌ ثابت ، معتمدٌ على عقيدته ، مستندٌ إلى رعاية ربه ، لا يخاف ولا يَرْهَب ، ولا يحنِى رأسه ، ولا يتَّقى ولا يخاف إلا الله .

فيقول : بل فَعَلَه كبيرُهم هذا ، فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون .

فأىُّ تهكمٍ بالصنم الأكبر وأىُّ ازدراء لعقيدتهم ، وأىُّ استخفافٍ بأحلامهم ؟

بل ، إن إبراهيم ، كان يرجو ، أن يعمل عملا ، أىَّ عمل ، يُسبِّبُ اجتماع القوم على هذه الصورة ، حتى يقول لهم قَوْلتَه ، ويُعْلن رسالته ، ويُبيِّن حجته ، ويُثبت فكرته ، وليُرِيهم قيمةَ ما يَحسبُونهم آلهة ، وليوضح لهم ، أن هذه الآلهة ، أعْجز من أن تحميَ نفسها ، أو تدفع التحطيم عنها فأوْلى وأجدر ألا تنفع أو تضر عُبَّادها . وأجدر بها ألا تكون آلهة تُعْبَد ، ولا تساوى إلا أنها أصنامٌ من حجارةٍ تكسَّر وتحطم .

وأوشك أن يقتنع بعض القوم بفكرته ، وأن يؤمنوا برسالته « فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون » .

ولكن إبليس ، رقص رقْصته ، وأشعل فِتْنته ، فنكَّسهم عن الحق . « ثم نُكِسُوا على رءوسهم » وعادوا يجادلون ويقولون : لقد علمتَ أنَّ هؤلاء الأصنام لا ينطقون .

قال : أفتعبدون من دون الله ، ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟ أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ! أفلا تعقلون ؟

قالوا : حرِّقوه ، وانصروا آلهتكم ، إن كنتم فاعلين .

وأرادوا به كيداً ، فجعلناهم الأخسرين .

* * *

وغضب القوم غضباً شديداً ، وتجمَّعوا عليه ، ليَفْتِكوا به ، وليمزِّقوه ، شرَّ مُمَزَّق . ولكنهم رأوا أن الفتك والتمزيق فى ساعة أو بعض ساعة لا يَشفى

غليلَهم ، ولا يُبْرِد نارَهم ، وقرروا : أنه لا يَشفى غليلنا ، ويطفىء نارنا ، إلا إذا عذَّبناه عذاباً بطيئاً ، ونكَّلْنا به نَكالاً شنيعاً . وأنه لا يكفينا حرقه ، وإنما نُحرِّقه تحريقاً ، فى نار تتلظَّى وتتوهج ، وإلا أن يوقدها عليه كلُّ غضبان ، ويؤجج لهبها كلُّ مَوْتور ، ليعلو أُوَارُها ، حتى يَشْوِىَ الطير فى جوِّ السماء ، وحتى يسمع بها التاريخ ويهمس بها فى آذان الأجيال ، تِلْوَ الأجيال .

ولا بد أن يشهد الخلق كلهم ، مَصْرع ذلك الفتى المتمرد على الآلهة الجاحد للأرباب ، المسفِّه للأحلام ، المحطم الأصنام ، المُبتدع لدين جديد ، يحاول أن يطمس به دينَ الآباء والأجداد .

هيا يا قوم ، أشعلوها ، واقذفوا به فيها ، فلقد كان يُهددنا بعذاب النار إنْ كفرنا ولم نؤمن بربه ، وها هو ذا قد كفر ولم يؤمن بآلهتنا ، فله عذاب النار . فأين إلهُه من آلهتنا ؟

وقالوا ابنوا له بنياناً ، فألقوه فى الجحيم ، وكتَّفوه ، ووضعوه فى المنجنيق فى المقذاف الذى سيطوِّح به . فلما صار بين الكفة والنار ، ضجت الملائكة وأتاه جبريل ، يسأله : ألك حاجة يا إبراهيم ؟ فرد عليه يقول : إما إن كنتُ أحتاج إليك ، فلست محتاجاً . فقال له جبريل : إذن فاسأل ربك ، فقال : علمه بحالى ، يُغنى عن سؤالى .

* * *

أرأيت العين ، يذهب بصرها ، فتعمَى ولا ترى ؟ أرأيت الجسم تُسْلَبُ

روحُه ، فيصير جثةً هامدة ، لا حركة فيه ولا حياة ؟ وأرأيت السكين تفقِدُ قوة الذَّبح ، فلا تقطع فى اللحم ؟

كذلك النار التى أجَّجوها ، فزمجرت بصوتها ، وزغردت بألسنتها ، قد سلبها الله حرارتها وحرَّها ، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم .

ويا ترى ؟ لمن تكون العناية الربانية ، والعناية الرحمانية ، إذا لم تكن لخليل الله إبراهيم ، فى ساعة كُرْبته ، واحْتدام شدته ! !

إن قوة العزم ، ورسوخ العقيدة ، وصلابة الروح ، واتصال العبد بربه ، وسموّ نفسه ، ليُنْسِى الإنسانَ حِسَّه وجَسَده .

* * *

وهدأت النار وخمدت ، وإبراهيم سليمٌ معافى ، لم يمسسه سوء . هائمٌ فى ساحة الله ، مُتَحَصِّنٌ برعاية الله ، هادىء النفس ، ثابت العقيدة ، كأنه قضى تلك الساعة فى جنة فسيحة ، يسرح بين ماء وخضرة ونسيم رطيب .

* * *

والناس ذاهلون ، وفى حَيْرتهم غارقون ، وعلى أنفسهم باللوم والخجل يعودون ، وكادوا يُسَلِّمون لإبراهيم ويُسْلمون ، ورجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ولكنهم نُكِسُوا على رءوسهم ، فعادوا لما هُمْ فيه من الكفر والعناد يغرقون .

* * *

تلك ثورة الشعب على إبراهيم ، وقد تبلبلت أفكارهم ، وازّلزلت عقيدتهم ،

وتحطمت أصنامهم ، وطاش آخر سهم صوّبوه إلى إبراهيم ، فراحوا فى شك من دينهم ، ولكنهم فى دينهم لا يفرطون .

* * *

وأين النمروذ ، الملك الجبار ؟ لقد خاف على عرشه ومُلكه من إبراهيم ! الذى غلب الشعب وحيَّره .

لقد استدعى إبراهيم ، وجادله ، ورسم خطة يهدم بها دعواه ، ويبطل حجته ، ويفسد رسالته ، ويبعث الشك فى عقيدته .

فسأل إبراهيم :

مَنْ ربك ؟

فأجاب : ربىَ الذى يُحيي ويُميت .

فقال النمروذ :

وأنا يا إبراهيم أستطيع أن أُحْيي وأميت .

قال إبراهيم :

فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأْت بها من المغرب .

فبُهِتَ الملكُ الذى كفر ! والله لا يهدى القوم الظالمين .

وماذا يفعل النمروذ فى فتى ، تَجَمَّع الشعب لإحراقه ، فَنجَّاه ربه ؟ ثم جادله الملك ، فأسكته ، وألزمه الحجة ، وبَهَتَه .

فلا القوة أهلكته ، ولا المجادلة أعْيَتْه وهدَّتْه !

فليس إلا ما يفعل الملوك ، من الدس والخديعة ، وضَرْب الحصار ، وتضييق الخناق ، حتى يقتله التضييق .

وكان ما قدَّر النمروذ ، فضاق إبراهيمُ بالعَيش بين هؤلاء الناس ، وكره المُقامَ فى قومٍ معاندين كائدين .

* * *

فهاجر ، وسافر من العراق إلى فلسطين ، ودعا الناس هناك ، ولَانَ فى دعوته مرة ، واشتد مرة ، وناقش وجادل ، ولَفَتَهم إلى النجم والكوكب ، والقمر والشمس ، وأنها لا تقوى أن تكون آلهة تُعْبَد .

فلما لم يؤمنوا ، قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين .

* * *

وحاجَّه قومه ، قال : أتحاجُّونى فى الله ، وقد هـدانى . ولا أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزِّلْ به عليكم سلطانا ؟ فأىُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ، ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بِظُلْم ، أولئك لهم الأمن ، وهم مُهتدون .

* * *

ولو أن أهل القرى ، آمنوا واتقوا ، لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض ، ولكن كذَّبوا ، فأخذناهم بما كانوا يكسِبون .

* * *

ومن أين تنزل البركة ، ومن أين يهب الله رخاء العيش ، ووِسْعَة الرزق ،

لأهل فِلَسطين ، وهم قد كفروا بربهم ، فأقْحط الأرضَ عليهم ، وأجْدَبَها فكزَّتْ وبَخِلتْ ، وضاق العيش بالشام ، وانقطع الأمل فى إسلام أهل فِلسطين .

* * *

ومن يُهاجرْ فى سبيل الله ، يجدْ فى الأرض مُراغَماً كثيراً وسَعَة .

وكذلك هاجر إبراهيم وزوجته سارة ، وابنُ أخيه لوط وزوجته ، ونزلوا مصر .

وفى مصر فرعون ، ملكُ عِملاق ، من الرعاة الهُكْسوس ، وقد سمع بهذا الوفد الوافد من فلسطين ، وتسرَّب إلى سمعه حديث الناس عن سارة ، الفلسطينية الجميلة الفاتنة ، فطلبها إليه ، وسأل إبراهيم عنها ، فأخبره أنها أخته .

* * *

هل كذب إبراهيم فى قوله إنها أخته ؟ ولماذا لم يصرِّحْ بأنها زوجته ؟ الحق أن إبراهيم لم يكذب فى أنها أخته . فقد كان الناس يتزوجون الأخت ، قبل أن تنزل الشريعة على إبراهيم .

وقد رأى إبراهيم من فرعون أنه لا بد سيأخذها لنفسه ، وأنه ليس فيه طاقة على أن يستخلصها منه ، وأن من الحكمة أن يُسَلِّمها على أنها الأخت . وليست على أنها الزوجة ، والأخت يُصَاهَرُ عليها ، والزوجة يعزُّ على النفس اغتصابُها .

ولعلّ فيها حكمةً أخرى ، كما قال موسى فى عصاه « ولى فيها مآرب أخرى » ومن أجل ذلك ، رأينا إبراهيم مضطراً إلى قبول هذا الوضع ، مستسلماً لقضاء الله . ودعا الله ألا يؤذيَه ، لا فى الأخت ، ولا فى الزوجة .

* * *

وبات فرعون ليلته ، فى أحلامٍ ورُؤًى مزعجةٍ مُفْزِعة ، وأفـكارٍ شاردة ، ونفسٍ ضائعة ، وهمٍّ نازل ، وخوفٍ لا يدرى له سبباً ولا مصدراً .

إذا مدَّ يدًا شُلَّتْ ، وإذا سعى برجلٍ زَلَّتْ ، وإذا همَّ تخاذل وانحطَّ لا يستطيع حَرَاكا .

واستغاث ، ولا غَوْث ، واستنجد بالصبح ، فلا يطلع . وأيقن أن قدرة الله أقوى من بطش فرعون ، وأن هذا الرجل النازل فى ضيافته كريمٌ على الله . وأن إيذاءه يجلب غضب الله .

فردَّ المرأة إليه كريمةً عزيزة ، ووهب لهما أموالا وخيرا ، وأرْدَفَهُم بخادمةٍ مصرية جميلة ، واسمها هاجر ، وأفسح لهم ليقيموا فى مصر ما يشاءون .

* * *

ولـكن إبراهيم ، النبى ، الرَّحَّالة ، لم يغُرِه رَغَدُ العيش بمصر ، ولم يَنْس أن عليه واجبا أن يعود إلى الشام ، إلى القوم الظالمين .

* * *

ولعل فى إقامة لوطٍ بمصر ، وزوجته معه ، بعضَ السر فى تعجيل إبراهيم بالارتحال ، عن بلاد ليست بلاده ، زوجة لوط ، التى يقول القرآن فيها :

«ضرب الله مثلا للذين كفروا ، امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يُغنيا عنهما من الله شيئًا ، وقيل أدخلا النار مع الداخلين » .

* * *

ولعل سرًّا وراء نُصْح إبراهيم لابن أخيه لوط ، حين سافرا من مصر

واقترح عليه ، ألا تُقيمَ الأسرتان فى بلدٍ واحد فى الشام ، حفظاً على القرابة ، وحرصاً على دوام الأُلفة .

وقد عمل لوط بنصيحة عمه إبراهيم ، فنزح إلى حدود الشام ، فى سَدُوم ، وأقام هناك يؤدى رسالته فى قوم لوط .

* * *

وأقام إبراهيم فى الشام ، مع زوجته سارة ، وخادمته هاجر ، الفتاة المصرية الجميلة ، هدية فرعون ، إلى الرجل الطيب ، المحفوف برعاية الله ، المحروس بحراسة الله .

* * *

وعاش إبراهيم سعيداً ، فى الخير الذى ساقه معه فرعونُ مصر ، بين زوجته سارَّة ، وقد تقدَّمتْ فى سنِّها وقد عَقِمَتْ ، فلم تلد ، وبين خادمته هاجر ، وهى فى مَيْعَةِ الصِّبا ، واكْتمال الصحة ، واستواء الجمال .

وإبراهيم قد جاوز الستين ، وقد تاقت نفسُه إلى ولد ، وزوجتُه سارَّةُ تُحسُّ حنينه إلى ولد ، وإن لم يتحدثْ ، وإن لم يتشوَّق .

* * *

ودفعها حبُّها لإبراهيم ، أن تقدِّم له هاجر ، زوجةً جديدة ، فهى خادمةٌ مرافِقةٌ ومُوافقة ، وسوف لا تكون أكثر من خادمةٍ وأمِّ ولد . ولعل ذلك يسدّ حاجةً فى نفس إبراهيم .

* * *

وإبراهيم يتأبَّى على سارَّة ، ويخاف عليها الغَيْرة ، ويُعلن رضاه بما هو

فيه . وسارة تلح عليه ، وتتحمَّس فى عَرْضِ هذه الضَّرة ، على زوجها إبراهيم .

* * *

ويدخل إبراهيم بهاجر ، فتلد الولد ، والولدُ قوةٌ وسَنَد ، وقِطعة من كبد . وعديلُ الروح والجسد .

* * *

ولـكنه يا إبراهيم من ضَرَّتى هاجر ! وقد ربطك بها ، وأنا بك لم أرتبط ! يا إبراهيم ! نفسى تحركتْ ، وهمومى تجـدّدتْ ، ودموع عينى تحدَّرتْ ، وضلوعى تقوَّضتْ .

يا إبراهيم ! أنا لا أطيق أن أرى هذا الولد ، ولا أم هذا الولد !

فبالله عليك ، وبحق عِشرتى بين يديك ، كنْ بى رحيماً يا إبراهيم ! ولا تُعَجِّلْ بقتلى ، ولا تُنَغِّصْ علىَّ بقيَّةَ عمرى !

بالله عليك ، خذ هذا الولد وأمَّه ، وارم بهما فى وادٍ سحيق ، لا أسمع عنهما خبراً فيه .

* * *

وأراد الله أن يستمع إبراهيم إلى سارة ، التى فقأت عينَها بيديها ، وقدمت ضَرتها عليها ، وضحَّتْ من أجل رضاه ، واستحلفتْه ألا يُبادلها قسوة بعطف ، ولا جَفوةً بوداد !

فأخذ هاجر ، وولدَها إسماعيل ، وخرج بهما ، يهيم على وجهه فى أرض الله ، لا يدرى إلى أين تسُوقُه قدماه !

* * *

وطاف ما طاف ، من الشام إلى العقبة ، إلى مداخل جزيرة العرب ، إلى جَوْف الجزيرة ، بين جبال ووديان ، وصحراء ورمال ، حتى أذن الله أن يَحُطَّ فى وادٍ غير ذى زرع ، بين جبلين أصمَّين ، واستودعهما الله فيه ، وقفل راجعاً ، مُشتَّت الفكر ، زائغ البصر ، مُوزَّع العاطفة ، بين زوجته سارة الكريمة عليه ، تقيم فى الشام باكية دامعة ، وبين زوجته هاجر أمِّ إسماعيل ، وقد ألقَى بهما فى الوادى السحيق .

* * *

وتمشى وراءه هاجر ، وتتعلق به ، وتقول : يا إبراهيم : على مَنْ تتركنا ؟ فيلتفت إليها ، وقلبُه باكٍ ، وعينه دامعة ، ويقول لها : أتركُكما على ربى . فتطأطئ رأسها ، وتَغُضُّ بصرها ، وتكفكِف دمعها ، وتقول : إذن ، الله لا يُضيِّعُنا . يا إبراهيم ، ارجعْ ، والله يرعاك ويرعانا !

وتعود هاجر إلى طفلها إسماعيل ، وقد اشتدت الشمس ، وصَفَرتْ الأرض وأوحش المكان ، فلا زرع ولا ضَرْع ، ولا دَيَّار ، ولا نافخَ نار .

وعطشتْ ، وعطش الولد ، فقامتْ تدور فى المكان ، تبحث عن ماء ، تُطفى به حُرقة العطش ، فلا تجد ، وتتلفّت ، فلا ترى إلا الجبال الصمَّاء ، ترى جبل الصَّفَا ، وقد أوقدته الشمس بوَهَجِها ، فلاح عليه سَرَابٌ ، والسَّراب دخان الأرض المَلْفُوحَة بالقَيْظ ، يُخيَّل لمن يراه من بعيد أنه ماء ، وما هو بماء .

فتجرى هاجر ، وتصعد فى جبل الصفا ، فلا تجد ماء .

فتجرى هاجر ، وتصعد فى جبل الصفا ، فلا تجد ماء .

ثم تنظر إلى بعيد ، فترى جبل المَرْوَة ، وترى عليه ماء ، وما هو بماء ، وإنما هو السَّرَاب ، فتجرى إليه ، وتصعد فيه ، فلا تجد ، ثم تلتفت إلى الصّفا ، فترى فوقه السّراب الخادع ، فتجرى إليه ، فلا تجد ، ثم إلى المروة ، فلا تجد .

سبعة أشواط تجريها ، بين جبلىْ الصفا والمروة ، باحثةً عن ماء . لتسقى الطفل إسماعيل ، فلا تجد .

فعادت إليه ، وجلست إلى جانبه ، واستسلمت لأمر الله ، وتضرَّعت إليه والطفل يصرخ ، ويضرب الأرض برجليه .

والله سبحانه ، لا ينسى صبيَّة جميلةً غريبة ، طوَّحت بها المقادير من أحضان أهلها بمصر ، إلى الشام ، إلى ضَرَّةٍ عنيفة ، إلى هذا الوادى الشحيح ، الذى وقف على حافته إبراهيم ، يصلى لله ، ويدعوه :

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غيرِ ذى زرع ، عند بيتك المُحرَّم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعلْ أفئدةً من الناس ، تَهْوِى إليهم ، وارزقْهم من الثمرات ، لعلهم يشكرون » .

* * *

وكانت البشارة ، بشارة استجابة دعاء إبراهيم ، إذ نبع الماء ، تحت قدمىْ الطفل ، ونبع صافياً بارداً ، سائغا للشاربين .

فسقتْ ولدها ، وروت عطشها ، وخافت على الماء أن يغيض فى

جوف الرمال المحرقة ، فأخذت تلمّه بيديها ، وتقول : زِمْ يا ماء زِمْ فكانت عين زمزم .

* * *

وحامت الطيور على ماء زمزم ، وحلّقت فى جو السماء ، ورأى العرب أن طيراً تحوم ، ولا تحوم إلا على ماء ، فوردوا ، واستأذنوا صاحبة العين ، فى أن يشربوا من مائها ، فأذنت ، واستضافوها . فضيّفتهم ، وعاشوا إلى جانبها ، فاستأنست بهم ، وكبر طفلها ، ودرج بين أطفالهم ، وتكلم بلغتهم ، واستعْرَبَ إسماعيل ، وأصبح منهم .

* * *

وعاود الحنين إبراهيم ، فكان بين الحين والحين ، يعود إلى الوادى ، ليرى ابنه إسماعيل ، ثم يعود إلى سارة العجوز ، التى تتحرّق شوقا إلى ولد ، كما وهب الله لضَرّتها هاجر الولد .

* * *

وإبراهيم شيخ فانٍ ، لم يُعقِّبْ ، وفيه عاطفةٌ عطشى ، تَحِنُّ إلى النَّسْل ، وتأنَسُ بالأولاد .

ومَنْ يُحرَم الولد ، يُحسُّ بالفقدان ، ويرى نفسه ، كأنه شجرٌ بلا ثمر . وهؤلاء يَرَوْن أنهم سلسلةُ حياتهم مُنقطعة الحلقات ، فهم يعيشون فى عطش الحرمان ، وجوع العُقْم .

وإبراهيم كان غنياً ، والغَنِىُّ أشدُّ عطشاً وجوعاً وشوقاً إلى الخَلَف .

ومن أجل هذا خرج إبراهيم من الشام ملهوفاً إلى الوادى السحيق فى

الحجاز ، وهى رحلةٌ طويلة ، يَحْدُوه الحنين إلى إسماعيل ، وإلى أم إسماعيل ، ويناجى نفسه فى الطريق ، ويناجى ولده ، تلك إرادةُ الله يا ولدى ، كتب علينا البِعَادَ والبَيْن ، وهبك لى فى شيخوختى ، ليُشْبَع شوقى ونَهَمِى ، ثم تكون إرادة الله ، ألا أربِّيك فى حِجْرى ، وأصْنَعَك على عيْنى .

لابد أنك يا إسماعيل قد كبرت ، ودَرَجْت مع الصبيان العرب ، ورُبِّيتَ بينهم ، ولقَّنُوك لغتهم ، وطبعوك على طبْعهم .

أنما حدَّثوك عن أبيك الذى رماك فى واديهم ، أبيك الذى جفاك ، وفى بيته وأهله ما آواك !

يا ليتك يا إسماعيل لا تنسى أباك ، ومتى يا إسماعيل ألْقاك ، وأراك إلى جانبى صبياً يافِعاً ، تُثَنِّى وَحْدتى ، وتسمع عنى قصة حياتى ، وتستُر عوْرتى ، وتردُّ غَيْبتى ، وتخلِّد ذِكْرتى .

* * *

ولقى إسماعيل أباه ، فأكرم مثواه ، ولم تسعْهُما الدار ، فخرجا إلى الخلاء . يمشيان ويسعيان ، ثم يعودان آخر النهار ، ثم يُصبحان فلا يسعهما إلا الفضاء . ولو استطاعا لعاشا فى جوِ السماء .

* * *

شوقٌ وحنين ، ووصالٌ بعد بَيْن ، وسَدٌّ لنقصٍ كان ينكسر له قلب إسماعيل ، حين يرى الآباءَ ولا يرى أباه .

وإشباعُ لعاطفةٍ كان يُدارى لَهِيبَها إبراهيم حين يرى الأطفال ، ولا يرى إسماعيل !

* * *

وفى نشوةِ هذا اللقاء ، أرادتْ حكمة الله أن يمتحن إبراهيم أشقَّ امتحان ، لا فى ماله وهو كثير ، ولا فى جسمه وبَدَنِه وهو قوىّ ، وإنما كان الامتحان فى وحيده ، وفلذة كبده إسماعيل .

* * *

أراد الله فى منامه ، أنه يذبح إسماعيل ، ورؤيا الأنبياء تكليف .

وأصبح إبراهيم مهموماً مغموماً ، كيف يقوى على ذبحه ، وقد كان مُكْتَوِياً مُلْتاعاً لبعاده ؟ وكيف يَجْلَد على حزِّ رقبته وإزهاق روحه ؟ وماذا يبقَى من عقله وجَلَدِه واحْتماله ، ليدفِنه ويُوارى جثَّته ؟

يا ربى تقبَّلْ نفسى فداءً لولدى !

أستغفرك يا ربى ، فهذا قضاؤك ، ولا رادَّ له .

اللهم إنى لا أسألك ردَّ القضاء ، ولكن أسألك اللطف فيه !

* * *

واصطحب إبراهيم ، ولده إسماعيل ، وخرجا يسعيان ، فلما بلغ معهُ السَّعْى قال له : « يا بنى ، إنى أرى فى المنام ، أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى » ؟

والولد البارُّ بأبيه ، يُكرمه ويُطيعه ولا يُخزيه .

لك الله يا إسماعيل ، ولك الله يا إبراهيم !

فى طاعة الله تنسَى أنه ولدُك ووحيدُك !

كلا والله ما نسيت ، ولـكنّه الانقيادُ لأمر الله .

وتنسى يا إسماعيل ، أنه يطلب رقبتَك ، ويسألك روحَك !

كلا والله ما نسيت ، ولـكنه الانصياعُ لأمر الله .

نفسان طاهرتان تتناجيَان ، ولا رقيبَ إلا الله ، وما سمعهما إنسٌ ولا جان ، ولا حَنَا عليهما حانٍ ، ولا أبصرهما عدوٌّ شَمْتَان .

وقال له إسماعيل : « يا أبت ، افعلْ ما تُؤْمَرْ ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

يا أبت ، اذبحْنى ، ولـكنْ بعيداً عن أمى ، حتى لا تفْجعها فىَّ ، فهى وَحْدَها التى حَنَتْ علىَّ ، واغتَرَبَتْ مِن أجْلى ، ودَفعتْ حياتها ثمناً لحياتى !

يا أبت اذبحْنى ، ولـكنْ لا تفجعْ فِىَّ أصدقائى الصِّبيانَ العرب .

ويا أبت اذبحْنى ، ولـكنْ لا تفجعْ نفسَكَ فِىَّ ، فأنا حبيبُكَ ووحيدُك !

ويا ليتنى يا أبى ، أستطيع أن أذبح نفسى بنفسى ، على مذبح مَرْضاتِك حتى لا أُتْعبك ، ولا أشقَّ عليك !

ويا أبت ، أنا ابنُك ، وطَوْعُ أمْرِك ، وسآخذ معى الحبلَ والسكِّين ، وسأسْبقُك إلى وادى مِنَى ، وفى قاعه اذبحْنى ، بين جبـاله العالية ، وسكونه الرهيب .

وَعَدَ إسماعيل أباه ، وصدَقَ وعْدَه ، ولو أنه سيدفع رقبتَه وحياته ثمناً لوعده . « واذكر فى الكتاب إسماعيل ، إنه كان صادقَ الوعد » .

* * *

وإسماعيل فى طريقه إلى مِنَى ، لَحِقَ به الشيطان إبليس ، فوسوس له بقوله : يا إسماعيل ، لا تستمعْ لهذا الشيخ الذى شاخ وخَرِف ! يا إسماعيل شبابُك وحياتُك ، وأمُّك التى ستعمى من بكائها عليك !

ولكن العقيدة الراسخة لا تُزَعْزِعها الوساوس ، فأخذ جَمَرَاتٍ ورَجَمَه بها ، وصدَّه عن طريقه ، وسار .

ثم اعترضه إبليس مرة ثانية ، ووسوس له يقول : يا إسماعيل ، إن أباك لم يَرَ فى منامه رؤيا ، وإنما هو رجلٌ عجوز حرَّضَتْه عليك زوجته سارة ، ضَرَّةُ أمك ، التى طردتْكما من الشام ، وهذه محاولةٌ أخرى للقضاء عليك ففتحْ عينيْك ، فأنْتَ الآن فى طاعة أبيك المسكين ، وإنما أنتَ ضحيةُ الغَيْرة ، غَيْرة الضّرة . وقد نبَّهْتُك ، فخُذْ حِذْرَك !

ولكن العقيدة السليمة ، لا تَهُدُّها الدسيسة ؛ والقلبَ العامِرَ لا تُخَرِّبُه شائعاتُ السوء .

فجمع جمراتٍ ، ورجم إبليس ، وصدَّه وأخْزاه !

وجاء إبراهيم ، فقدَّم إليه إسماعيل الحبلَ والسكين ، وهمَّ أبوه أن يربطه ويُكتِّفه ، ولكنّ إسماعيل قال : يا أبت . أنا مُسْتسلم لك ، راضٍ بقضاء الله وأحب أن تذبحنى من غير وَثاق ، حتى يكون لى ثوابُ الرضا بمقدور الله .

فأضجعه إبراهيم على جنبه ، واستجمع قوّته وشجاعته ، لذبح ولده . وأمسك السكين بيدٍ مرتعشة ، وأعصابٍ محطمة مُنْهارة ، ونفسٍ مُنكسرة ، وقلبٍ مَكْلُومٍ حزين .

وحزّ بالسكين رقبة ولده ، ولكنّ السكين لا تحزُّ ولا تقطع ، فهى كالعين التى سُلِبَ بصرُها فأصبحتْ لا ترى ، وهى كالنارِ التى أوقدوها لتحرق إبراهيم ، ولكنها كانت برداً وسلاماً عليه .

وكذلك كانت سِكينُ إبراهيم ، لا تحزُّ ولا تقطع .

والشيخ يَزُمُّ شفتيه ، ويكتم نَفَسَه ، ويستنجد بما بقى فى نفسه من شجاعة ، وبما بقى فى عضلاته من فتوة ، ويحزّ بالسكين ، فلا تحزّ . ولا تقطع .

وتأخذه الرحمة فيبكى ، وتدمع عيناه ، فتسقط الدموع على دموع إسماعيل الباكى رحمة بأبيه .

دموع على دموع ، تغلى وتفور بحرارة الإيمان ، فيصعد منهما عمودٌ من نور ، وقَبَسٌ من طاعة الله ، والاستسلام لقضاء الله ، والتضحية فى حب الله بالحياة ، وهى أغلى ما وهب الله !

وضجّت ملائكة الله فى سماه ، وتعلّقتْ بعرش الله ، تدعو وتستجير بالله .

ارحمْ يا رب هذا الشيخ الكبير ، وافْدِ يا ربِّ هذا الغلامَ الصغير !

واستجاب الله ، ورحم إبراهيم وإسماعيل ، وأنزل جبريل بالفِداء ، بكبشٍ من كباش الجنة ، وقال :

يا إبراهيم ، ربُّك يُقْرِئُك السلام ، ويُنعم عليك وعلى إسماعيل بالفِداء والإكرام .

« يا إبراهيم ، قد صدَّقتَ الرؤيا ، إنا كذلك نَجْزى المحسنين ، إن هذا لَهُوَ البلاء المُبين ، وفَدَيْناه بِذِبْحٍ عظيم ، وتركْنا عليه فى الآخرين سلامٌ على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين » .

* * *

وهلَّل إبراهيم ، وكبَّر إسماعيل ، وفرحت لفرَحِهما السموات والأرض والجبال ، وكان يومُهما يومَ عيد ، عيدِ الأضحى ، الذى رسمه إبراهيم لمَّا ضحَّى بالفداء .

* * *

لك الله يا إسماعيل ، إنك سيِّد الأبناء ، وعميد الأبرار ! أين منك أجدادك أولاد آدم ، الذين اقتتلوا من أجل عروس ! وما اقتتلْتَ ولا غضِبْتَ من أجل نفسك !

وأين منك عمُّك ، ابنُ نوح ، الذى خرج عن طاعة أبيه ، وقد كنتَ فدائياً مثالياً فى طاعة أبيك .

* * *

وعاد إبراهيم إلى الشام ، بعد هذا الابتلاء ، راضياً ، خاشعاً مؤمناً ، وقد رسخ إيمانُه ، وعمُق يقينه ، وسبح فى ملكوت الله ، لا يرى ولا يسمع ، ولا يُبصر ، ولا يفكر إلا فى الله .

« ورحمةُ ربِّك خيرٌ مما يجمعون » .

و « إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين » .

ورحمةُ ربنا أوْسَع ، وفسيحُ رضاه أَرْحَب ، مما نظن ونأمُل .

فلقد كان إبراهيم غارقاً فى حياته من الله ، إذ حَباه وفَدَى له إسماعيل .

وما لبث أن حَطَّ رحالَه عند سارة ، حتى شاركته فى الثناء على الله .

وسبَّحتْ الله فى علاه ، وخرَّتْ ساجدةً حامدةً شاكرةً على ما قضاه .

و « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

فقد دخل عليها ، وعلى إبراهيم ، ملائكةُ الله ، يزُفُّون إليهما البُشْرى ، بولدٍ سيولد لهما ، واسمُه إسحٰق ، ومن وراء إسحٰق يعقوب .

فلما سمعت البُشرى ، اختلط عليها أمرُها ، وتوزَّعت عواطفُها ، بين شيخوختِها التى لا أمل فيها أن تلد ، وبين بشارة من الله أنْ سَيَهَبُ لها الولد ! فضحكت بِمِلْءِ شِدْقَيْها مرة ، وضَرَبتْ وجهَها بكفَّيْها مرة ، وغرقت فى العَجَب مرة ، وخافَتْ قولَ الناس فيها وفى زوجها الشيخ مرة .

وفزعت لِهَوْل موقفها ، وقالت : ياويلتا ، أألِدُ وأنا عجوز ، وهذا بَعْلى شيخاً ؟ إن هذا لشىء عجيب !

قالوا : أتعجَبين من أمر الله ! رحمةُ اللهِ وبركاتُه عليكم أهلَ البيت .

* * *

وبعد فترةٍ من الزمن ، طالتْ أو قَصُرَتْ ، كبر إسماعيل وَشَدَا ، ودرج مع أطفالِ العرب الذين عاشوا حوله ، وهم يلهون ويلعبون ، ويركبون

الخيل ، ويتبارَوْن فى الفروسية ، ويرمون بالسهام والقِسِىِّ ، ويجرون وراء الغزلان . وتزوج إسماعيل ، وبنى بيتاً وكوَّن أسرة .

وجاشت فى نفس أبيه الشيخ عاطفة الأبوة ، أن يرحل ليزور ولده إسماعيل الغريب . ووصل ، وطرق الباب ، فردتْ عليه زوجةُ ولده ردًّا غير كريم ، ولم تعْزِمْ عليه ، ولم تُحسن التحدث إليه ، بل شَكَتْ الحال ، وسوء المآل ، وقلة المال ، وشظفَ العيش ، وضِيقَ النفس بالحياة .

والأب العجوز النازح من الشام إلى الحجاز ، يتحسَّسُ أخبار ابنه ، فيسمع من هذه الزوجة ، كلاماً عن ابنه لا يسُرّ ، ويرى من لِقائها ووجهها ما يضر ، فلم ينزل عن ناقته ، ولم ينشرحْ صدرُه ، وقال : إن جاء إسماعيل ، فسلمى عليه ، وقولى له : إن رجلاً من الشام ، جاء يزورك ، فلم يجدْك ، ولم يَسعدْ بك ، وساءه أنك غيرُ سعيد ، وهو يدعو لك ويوصِّيك أن تُغيِّر عتبةَ بابك .

فَشيَّعَتْه بجَفْوة ، وأغلقتْ الباب فى وجهه .

وعاد إسماعيل ، فأخفتْ عليه ، ولكنه شم رائحة أبيه .

فتحدثتْ حديث الغضبانة ، عن رجل عجوز ، يسأل ويوصِّى ؟ ومالَه ! ومالَنا ، يبحث فى أحوالنا ، وينصحُنا أن نغيِّر عتبة بابنا ! !

فقال إسماعيل : ياتاعسة الحظ ، وياخائبة الأمل ، سعادةُ الإنسان فى حفظ اللسان ، إنه أبى ، جاء يسأل عنى ، ويطمئن علىَّ .

وتغيير العتبة ، تطليق المرأة ، وتسريحُ الزوجة ، اذهبى فأنت طالق .

* * *

وعاد أبوه بعد قليل ، لانشغاله عليه ، وطَرَق الباب ، فلَقِىَ الترحيب والتأهيل بالضَّيف الكريم ، والأب الرحيم ، وأن إسماعيل سيعود عما قريب ، وأنزلْ ياسيدى ، فأنا هنا خادمته وزوجته . وهو سعيدٌ ، وفى خيرٍ مزيد ، وعيشٍ رغيد . ولما لم ينزلْ ، استحلفَتْهُ بالله لَيَنتَظِرَنَّ .

ثم دخلت ، وما أسرع ما خَرجَتْ ، بماءٍ ليغسل به وجهه ورأسه ، ثم دخلتْ ، وما أسرع ما خرجتْ ، وعلى رأسها زادٌ من لبنٍ وتمر ، وسقته ماءً بارداً سائغاً للشاربين .

فقال لها : بارك الله عليك وعلى إسماعيل ، سلمى لى عليه ، وقولى له إن أباك ، مطمئنٌ عليك ، ويدعو لك ، ويوصّيك أن تُثبت عتبة دارك .

وجاء إسماعيل ، فهلَّلت وكبَّرتْ لزيارة الشيخ الكريم ، وأنها تمنَّتْ عليه أن يستريح ، ولكنَّه لم ينزلْ .

فقال : ياسعيدة . هذا أبى ، حلَّتْ بركاتُه ، واستجيبتْ دَعَواتُه دعا لك بالتثبيت ، لِقاء ما أكرمت ، وأحسَنْتِ اللِّقاء .

«يُثبت اللهُ الذين آمنوا بالقولِ الثابت ، فى الحياة الدُّنيا ، وفى الآخرة ، ويُضلُّ الله الظالمين ، ويفعلُ الله ما يشاء» .

* * *

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى ، بوادٍ غيرِ ذى زرعٍ ، عند بيتك

المحرم ، ربَّنا ليُقيموا الصلاة ، فاجعلْ أفئدة من الناس تَهْوِى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ، لعلهم يشكرون » .

* * *

أين كان بيت الله المحرَّم ، يوم دعا إبراهيم ربه ؟

أكان يعرف إبراهيم مكانه ؟ أم ألهمه الله أنَّ هذا مكانُه ؟

أو أنَّ هذه الرَّبوة ستكون مكانَه ؟

* * *

أم كما قالوا : إن الملائكة بَنَوْا مسجداً هنا ، سَجَدُوا لله فيه ، وطوَّفوا حوله ، تسبيحاً لله ، وثناءً عليه ؟

* * *

أم كما قالوا : إن آدم ، يوم هبط إلى الأرض ، بنى مسجدَه هنا ، ثم قدُم وانْدثر ، وغمره طوفانُ نوح ، وبقيتْ أطلاله ؟

الذى كان ، أن إبراهيم أسْكَنَ إسماعيل هنا ، ليُصَلِّى لله ، ولتُصلِّى ذريتُه فى هذه البقعة الطيِّبة من الأرض ، وسأل إبراهيمُ ربَّه ، أن يجعل قلوب الناس تهْفُو وتهوى إلى هذا الوادى القاحل المُجْدب ، الذى لا زرعَ فيه ولا ضَرْع . وسأل الله ، أن يَمُنَّ عليهم بالثَّمر ، والثمرُ من الشجر ، والنخلُ وفير ، وخيره كثير .

* * *

وكان كل دعاء إبراهيم ورجاؤه ، أن يُوفِّق هؤلاء الذين سيعيشون فى هذا الوادى إلى شكره على ما أنعم ، والثناء والحمد على ما وهب . من تيسير

أسباب الحياة والرزق ، فى صُقْع من الأرض ، لا تُرْجَى فيه حياة ولا رزق .

* * *

ولعل من استجابة الله لدعاء إبراهيم ، أن فَرَضَ الحجَّ على الناس ، ليحملوا إليهم من مالٍ ورزقٍ وزاد ، ومنَّ عليهم بالشجر والثمر ، ومنَّ عليهم بثمر الأرض من مناجم الذهب ، ومنابع البترول ، وأفاء عليهم بفضله العميم ، ولعلهم على ذلك يحمدون ويشكرون ! .

* * *

والذى كان ، أن الله سبحانه ، جعل من دون استجابة دعاء إبراهيم ، اختباراتٍ وامتحاناتٍ وابتلاءات .

« وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ ، فأتمَّهن » .

فابتلى إبراهيمَ فى هَجْرِه ضَنَاه إسماعيل .

وابتلى هاجرَ فى الصبرِ على الحَبْس ، فى وادٍ غير ذى زرع . وأعطشها ، حتى كادتْ تهلِك ، وأوْحَشَها ، حتَّى كادت تَنْبُو بالمكان . وأهدى إليها العين ، حتى يرى إنْ كانت ستضِنُّ على العرب العطاش ، وجمَّع عليها العرب ، وهى شابّةٌ ، ليبلُوَها فى رعايةِ نفسها ، وصيانةِ عِرْضِها ، ومَاء وجْهها وحَضَانَةِ ابنها .

واختبر إبراهيم ، بِلَهَبِ الشّوْق والحنين إلى ولده ، وهو فى قُطْرٍ غير قُطره ، فجعله نَهْباً مُوَزَّعاً بين سارة فى الشام ، وبين هاجر وإسماعيل فى الحجاز .

وابتلاه بذبح ولده ، ثم فداه ، ليسْبُرَ غَوْرَ صبره ، على قضاه . وبشّره بإسحق ، ومِنْ وراء إسحق يعقوب ، ليرى مقدار شكره .

وابتلاه بسَفَرَاتِه ورَحَلَاتِه من الشام إلى الحجاز ، ليزورَ إسماعيل فتصْدُمَه زوجةُ إسماعيل الناكرة . ويزورُه مرة أخرى فتلقاه زوجتُه الشاكرة .

وابتلاه بتوزيع جُهوده بين هذا وذاك ، وهو لا يزال مُكلَّفاً بدِينه ، ونَشْرِ رسالته ، والدعوة إلى الله .

قوّاك الله يا إبراهيم ، فى اختبارٍ وابتلاء توضع فى البُوتَقَةِ لتَنْصَهِر ، فتخرج منها ، خالصاً من الدَّرن ، صافىَ المعدن ، لطيفَ الحِسّ والإيمان .

حتى إذا أتمّ الله صُنْعَكَ على عين الله ، وحَسْبَما أرادك الله ، كَلَّفَك أن ترحل رِحلةً خطيرة ، لمُهِمّةٍ خطيرة .

* * *

أن ترحل يا إبراهيم هذه المرة من الشام إلى الحجاز ، لتبنى أنتَ وولدُك إسماعيل : بيتاً لله ، أول بيوتِ الله ليعبُدَ الناس فيه الله :

« إن أول بيتٍ وُضِعَ للناس لَلَّذى ببكة ، مباركاً وهدًى للعالَمين . فيه آياتٌ بيِّنات ، مقامُ إبراهيم ، ومَنْ دخله ، كان آمنا » .

«وإذ بوَّأْنا لإبراهيم مكانَ البيت ، ألا تُشْرِكْ بى شيئا ، وطَهِّرْ بيتى للطائفين والقائمين والرُّكَّعِ السُّجود » .

« وإذْ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت ، وإسماعيل ، ربَّنا تقبلْ منَّا ، إنَّك أنت السميع العليم ، ربَّنا واجعلْنا مُسْلِمَيْنِ لك ، ومِنْ ذريتنا ، أمةً

مُسلمةً لك ، وأَرِنَا مَناسِكَنَا ، وتُبْ علينا ، إنك أنت التوابُ الرحيم . ومَنْ يرغبُ عن مِلَّةِ إبراهيم إلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرةِ لمن الصالحين ، إذ قال له ربُّه أسلِمْ قال : أسلمتُ لرب العالمين » .

أليس فى دعاء إبراهيم ، بشارة ، بدعوة نبيِّنا محمدٍ ، عليه وعلى آله الصلاة والسلام ؟ حين دعا فقال :

« ربنا وابعثْ فيهم رسولًا منهم ، يتلو عليهم آياتِك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » ؟ .

* * *

وإبراهيم يبنى وإسماعيل يناول ، فى الله ، ولله ، حتى بُنيت الكعبة ، فكانت أولَ بيتٍ للعبادة ، وكلُّ مسجدٍ للعبادة ، ولكنْ للكعبة فضلُ الأوْلويَّة . كالابْنِ البِكْرِ بين إخْوتِه وأخواته له الهيبةُ والقيمةُ والاعتبار .

* * *